"التنمية والعدالة الاجتماعية من منظور كتابي لاهوتي"

د. فنيس نقولا

دخل المجتمع الكنسي مجال التنمية في ظلِّ مفاهيم متنوِّعة أحيانًا، ومتغيِّراتٍ متلاحقةٍ أحيانًا أخرى، ممَّا أدَّى إلى تعدُّد الآراء، وربما تضاربها، بين ما يُعَدُّ مقبولًا كنسيًّا في مجال التنمية، وبالتالي يجوز للكنيسة ممارسته، وما لا يُعَدُّ مقبولًا، بما في ذلك فكرة «التنمية» نفسها، باعتبارها لا تتفق مع التعليم الكتابي والتطبيق اللاهوتي؛ لأنها من العلوم الإنسانية التي لا توافق التعليم الديني.

ولذلك، تجري محاولات كنسية لإضفاء مِسحةٍ دينيةٍ على المشروع التنموي، سواء من ناحية تفادي العبارات غير الدينية، أو من ناحية الإصرار على الاتكاء على نصٍّ دينيٍّ واضحٍ وصريحٍ يجيز الأخذ بما توفِّره الأبحاث في مجال التنمية.

ما التنمية؟

التنمية عنصرٌ أساسيٌّ للاستقرار والتطوُّر الإنساني والاجتماعي، وهي عمليةُ تطوُّرٍ شاملةٍ أو جزئيةٍ مستمرةٍ، تتخذ أشكالًا مختلفةً تهدف إلى الارتقاء بالوضع الإنساني نحو الرفاه والاستقرار والتطوُّر، بما يتوافق مع احتياجات الإنسان وإمكاناته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وتُعَدُّ الإنسانَ وسيلتَها وغايتَها (https://ar.wikipedia.org/wiki).

فالتنمية ليست لفظًا يُطلَق من باب الوجاهة على بعض الأنشطة الاجتماعية، وإنما هي مطلبٌ أفرزته الخبرات الإنسانية. فقد ساد مفهوم «التقدُّم»، أو الانتقال الاجتماعي من وضعٍ إلى وضعٍ أفضل منه، نتيجةً لاكتشاف أحد قوانين الطبيعة، مما مكَّن البشر من فرض مزيدٍ من سيطرتهم على الطبيعة وتحقيق تقدُّم المجتمع. غير أن الحروب والأزمات والانهيارات الاجتماعية وغيرها كشفت عن احتمالية انتكاس حركة التقدُّم.

من هنا كانت التنمية عنصرًا أساسيًّا لاستقرار الإنسان وتطوُّره، واستقرار المجتمع وتطوُّره، ثم أُضيف إليها مصطلح «التنمية المستدامة»؛ أي التنمية القابلة للاستمرار، وهي التي تُلبِّي احتياجات الحاضر دون أن تُهدِر قدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها. (سامي خشبة، **مصطلحات الفكر الحديث–ج1**، ص ص230–241).

من هنا اتَّسع مفهوم التنمية ليشمل معنًى أوسع من مجرد سدِّ الاحتياجات المادية، التي تظهر في صورة شُحِّ الموارد المادية وعدم كفايتها لتلبية مطالب الفرد اليومية، والحصول على الطعام والمأوى والملبس والخدمات التعليمية والصحية، ناهيك عن الاحتياجات الطارئة. إذ يراعي مفهوم التنمية الجانب المعنوي، وهو أشدُّ وطأةً من الجانب المادي؛ فتأثُّر الفرد بالشعور بالحاجة، وما يترتب عليه من انعكاسٍ على إدراكه أهميته داخل الجماعة، يؤثِّر سلبًا في إحساسه بقيمته وتطلُّعه إلى تحسين حياته المعيشية، بل وفي استجابته للتنمية وبرامجها. وهذا ما عبَّر عنه باولو فريري بمصطلح «اختزال الصفات الإنسانية» (ويقصد به تصوير واقعٍ يُضعِف الصفات الإنسانية)،[1] وذلك عندما تفتقد برامج التنمية الكفاءةَ المطلوبة لتحقيق أهدافها، فلا يستفيد منها الفئات المستهدفة.

وللراحل الدكتور القس صموئيل حبيب[2] رؤيةٌ لاهوتيةٌ فيما يختص بلاهوت التنمية، سجَّلها عام 1979. وتقوم رؤية الدكتور صموئيل حبيب على عدة أسس، منها: أن الله خلق الإنسان على صورته، وأن دعوة الله تشمل التحرير من خطايا الفرد والمجتمع على السواء، وأنها التزامٌ مسيحيٌّ ينبع من عدم رضا الله عن مذلَّة شعبه. كما أن تجسُّد السيد المسيح دعوةٌ إلى الإنسانية الحقَّة، وإظهارٌ لاهتمام الله بالإنسان، وإعلانٌ لمحبته له ورغبته الصادقة في استرداد الإنسان إلى إنسانيته. وبالتالي، فإن شعب الله مسؤولٌ عن تفعيل التنمية الذاتية لأفراده، ليكونوا على مستوى المسؤولية في خدمة البيئة في مختلف مجالات الحياة.

من هذا المنطلق، تصبح العدالة الاجتماعية والتنمية ركيزتين متكاملتين لبناء مجتمعاتٍ مستقرةٍ ومزدهرةٍ؛ فلا تنميةَ مستدامةَ دون عدالةٍ تضمن توزيع عوائد التنمية توزيعًا عادلًا ومتكافئًا.

ما العدالة الاجتماعية؟

---

[1] باولو فريري، **الفعل الثقافي في سبيل الحريّة**، ترجمة إبراهيم الكردي. صادر عن مركز الدراسات، والمعلومات القانونيّة لحقوق الإنسان الطبعة الأولى 1995.

[2] صموئيل حبيب، **الأساس اللاهوتي والكتابي للتربيّة الشعبيّة ومحو الأميّة**، (القاهرة: دار الثقافة)،1979.

العدالة في اللغة

- تُشكِّل العدالةُ معنى الحياد التام وعدم التحيُّز، وتقوم على إعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وعدم الاعتداء على الآخرين.
- وهي مَلَكةٌ تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة.
- العدالة الاجتماعية: (الاقتصاد) نظامٌ اقتصاديٌّ يعمل على إزالة الفروق الاقتصادية الكبيرة بين طبقات المجتمع https://www.almaany.com/ar/dict/ar-

واستخدمت هذه الكلمة في الشريعة بمعنى:

- القواعد التي تقود وترشد الذين في موضع القضاء (لاويين 19: 35) (أمثال 29: 14)
- أوصى بها الرب (أمثال 31: 8، 9)؛ (إشعياء 1: 17).

وكانت الحقوق الإنسانية في قمة اهتمامات يسوع المسيح، أمَّا العدالة والأخلاق فهما يمثِّلان المستوى الأخلاقي لسلوك الإنسان (إشعياء 26؛ عاموس 5: 24؛ 1كورنثوس 4: 1).

العدالة الاجتماعية في العهد القديم

تقدِّم أسفار العهد القديم منظورًا للعدالة الاجتماعية (مثال إشعياء– حبقوق– ملاخي– ميخا... وغيرها).

إقرار العدالة الاجتماعية يعني إقرار الإنسانية:

يرى الدكتور حبيب أن إقرار العدالة الاجتماعية أمرٌ لازمٌ لإقرار إنسانية الإنسان؛ فالكتاب المقدس يجعل العدالة أساسًا للعلاقات الإنسانية، والمسيحيون مدعوون إلى المطالبة بإعادة النظر في أوضاع النظم الاجتماعية التي تقوم على أسس الظلم الاجتماعي، وإحلال نظمٍ اجتماعيةٍ ينمو فيها البر والعدل والحق (عا 5: 10–17): "فِي الْبَابِ يُبْغِضُونَ الْمُنْذِرَ، وَيَكْرَهُونَ الْمُتَكَلِّمَ بِالصِّدْقِ .لِذلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمْ تَدُوسُونَ الْمِسْكِينَ، وَتَأْخُذُونَ مِنْهُ هَدِية قَمْحٍ، بَنَيْتُمْ بُيُوتًا مِنْ حِجَارَةٍ مَنْحُوتَةٍ وَلاَ تَسْكُنُونَ فِيهَا، وَغَرَسْتُمْ كُرُومًا شَهِية وَلاَ تَشْرَبُونَ خَمْرَهَا. لأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ ذُنُوبَكُمْ كَثِيرَةٌ وَخَطَايَاكُمْ وَافِرَةٌ أَيُّهَا الْمُضَايِقُونَ

الْبَارَّ، الآخِذُونَ الرَّشْوَةَ، الصَّادُّونَ الْبَائِسِينَ فِي الْبَابِ. لِذلِكَ يَصْمُتُ الْعَاقِلُ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ لأَنَّهُ زَمَانٌ رَدِيءٌ .اُطْلُبُوا الْخَيْرَ لاَ الشَّرَّ لِكَيْ تَحْيَوْا، فَعَلَى هذَا يَكُونُ الرَّبُّ إِلهُ الْجُنُودِ مَعَكُمْ كَمَا قُلْتُمْ أَبْغِضُوا الشَّرَّ، وَأَحِبُّوا الْخَيْرَ، وَثَبِّتُوا الْحَقَّ فِي الْبَابِ، لَعَلَّ الرَّبَّ إِلهَ الْجُنُودِ يَتَرَاءَفُ عَلَى بَقِيَّةِ يُوسُفَ. لِذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ إِلهُ الْجُنُودِ» :فِي جَمِيعِ الأَسْوَاقِ نَحِيبٌ، وَفِي جَمِيعِ الأَزِقَّةِ يَقُولُونَ: آهِ! آهِ! وَيَدْعُونَ الْفَلاَّحَ إِلَى النَّوْحِ، وَجَمِيعَ عَارِفِي الرِّثَاءِ لِلنَّدْبِ وَفِي جَمِيعِ الْكُرُومِ نَدْبٌ".

ويقول الدكتور حبيب: «يقف يسوع وراء القيم الاجتماعية والأخلاقية للتقوى الفردية والجماعية، كما أن للتاريخ المقدس جانبًا دينيًّا يقدِّم الفهم المسيحي عن الله والعالم والنفس، سواء من ناحية القيم أو من ناحية الفهم المسيحي، وكلاهما يرتبط بالفداء؛ إذ تنشأ عنهما رؤيةٌ فكريةٌ مسيحيةٌ تُسهم في تكوين المجتمع».

وعودةً إلى باولو فريري، فإنه يرى أن التنمية موجهةٌ نحو التحرير، وأن التعليم يهدف إلى أن يشعر المتعلِّم بواقعه، فيتحرك ليقف على قدميه إنسانًا حرًّا، لا أن يقتصر على مناهج تعليمية لا تدفع إلى التحرير.

ولعلَّ كلَّ من يعمل في مجال التنمية في حاجةٍ إلى استيعاب هذا المفهوم، كما أن برامج التنمية في الكنيسة المصرية في حاجةٍ إليه أيضًا؛ إذ إنها، في أغلب الأحوال، تكتفي بمفهوم «إخوة الرب»، الذي يقضي بالتعامل مع الطبقات الفقيرة من خلال سدِّ إعوازها المادي، فلا تُعلِّم الفقير الصيد، بل تعطيه السمكة وكفى. والأدهى من ذلك أن «إخوة الرب» لا يُخصَّص لهم الاسم فحسب، بل تُخصَّص لهم أيضًا أماكنُ التواجد؛ فتقتصر اجتماعاتهم عليهم، والأصعب من ذلك أن يتمدَّد هذا المفهوم ليشمل جميع الاجتماعات الفرعية، مثل: «أولاد إخوة الرب» (الإعدادي والثانوي).

مسئولية الكنيسة

شعب الله جماعة فاعلة

كتب الدكتور القس فايز فارس في كتابه «الأخلاق المسيحية» أن ملامح أخلاقيات الشخصية المصرية المسيحية ظلَّت، لعقودٍ طويلةٍ، تتبنَّى قيمًا توفِّر بالكاد انحصار الجماعة وتقوقعها حول نفسها؛ حمايةً لوجودها. أمَّا أن تكون جماعةً فاعلةً كما قصد الله لها، فذلك أمرٌ يحتاج إلى إعادة النظر في المنظومة القيمية والأخلاقية التي ينبغي للكنيسة أن تغرسها في وسط الجماعة. فالكنيسة، بحسب فكر الله، تشير إلى شعب الله الذي خلقه على صورته، وإلى السيد المسيح الذي كان يجول يصنع خيرًا.

فشعب الله مسؤولٌ عن التنمية الذاتية لأفراده؛ ليكونوا على مستوى المسؤولية في خدمة البيئة في مختلف المجالات (حبيب، المرجع السابق). وشعب الله يتكوَّن من جماعةٍ متحرّكةٍ قبل أن يكون خاضعًا لنظام؛ فالكنيسة مدعوَّة إلى التحرُّك لخدمة العالم أجمع.

الكنيسة وتدعيم قيم تتعامل مع قضايا ومشاكل العصر

يحتاج الأمر إلى إلقاء نظرةٍ جديدةٍ في إطار إعادة التفكير في القيم الأخلاقية المسيحية المصرية، تبدأ بمراجعة مفهوم القيمة الأخلاقية في حدِّ ذاته؛ حتى تتمكَّن الكنيسة من الإسهام في صياغة قيمٍ أخلاقيةٍ مسيحيةٍ جديدةٍ تُبنى وتُؤسَّس على تفسيرٍ صحيحٍ للكتاب المقدس، وتعبِّر عن نضجٍ فكريٍّ ولاهوتيٍّ يؤمن بأن طبيعة المسيحية هي حياةُ الروح القدس المبدع الخلَّاق، والمحبةُ المسؤولة التي تتجاوب بوعيٍ ومرونةٍ مع ظروف الحياة ومواقفها المتغيِّرة.

ومازال ما كتبه الراحل د. صموئيل حبيب واجب الاتباع[3] حين قال **إن على الكنيسة العمل على:**

- قيمة احترام العمل
- احترام الفكر الخلاّق والمبتكَر والبعد عن التواكلية
- تغيير النظرة لمشروعات الخير من حيث عدم الاكتفاء بتسديد احتياج الفقراء ولكن العمل على تنمية البشرية ككل، وبمعنى فهم معنى القريب كما شرحه السيد المسيح، فهو ليس فقط المسيحي ولكن هو أي إنسان يحتاج للعون.

التمييز بين الخدمة الاجتماعية Social Service والفعل الاجتماعي Social action فالخدمة الاجتماعية تخدم حاجات الإنسان والفعل الاجتماعي يرفع أسباب الفقر ويتخذ القرارات السياسية والاقتصادية ويراعي العدالة وتغيير النظم والأجهزة لصالح ذلك، وهذا يحتاج أن تضيف الكنيسة لدعوتها لفكرة الخلاص الفردي من الخطية، دعوة أخرى وهي الخلاص الشامل، فلا يقتصر دور الدين على الإلهام الروحي والضبط الأخلاقي ومهاجمة بعض الظواهر ووصمها بالحرام أو ما لا يليق، والمصادقة على بعض السلوكيات ووصفها بالحلال أو ما يليق.

فدور الدين يستند إلى مركزية الحضور الإلهي في التاريخ الانساني والتفاعل في الظروف المعيشية والتطور المجتمعي.

فما الخطوات التنفيذية التي على الكنيسة أن تستفيد بها لتحقيق هذا الهدف؟

---

[3] صموئيل حبيب، **الكنيسة والتحولات الاقتصاديّة والاجتماعيّة**، القاهرة: دار الثقافة، 1999

أولًا: الجانب العلمي

أ- الأخذ بمنهج التفكير العلمي، والاستفادة من العلوم الإنسانية في كل خطوةٍ تنمويةٍ؛ فلم يعد العمل غير المنظم مجديًا؛ نظرًا إلى تعقُّد مجالات الحياة وتنوُّعها.

ب- إيجاد توجُّهٍ كتابيٍّ ولاهوتيٍّ للكنيسة ولكليات اللاهوت؛ لإعطاء أهميةٍ جادةٍ ومؤثِّرةٍ لغرس مفهوم التنمية، ولا سيما أن الكتاب المقدس بعهديه يتميَّز بالثراء والغنى في هذا المجال، غير أن الاكتفاء بالقراءة البسيطة يُغيِّب كثيرًا من المعاني.

ج- تقديم قراءةٍ لاهوتيةٍ جديدةٍ، سواء بالاستعانة بما يتوافر في المكتبة العربية، أو بالاستفادة من كتابات اللاهوتيين الذين أولوا اهتمامًا بالمجال التنموي، سواء في الكتابات العربية أم الأجنبية.

د- إعادة النظر في التوجُّس الحذِر الشديد تجاه الأفكار الجديدة، ولا سيما في المجال الروحي، التي يمكن معالجة نواحي ضعفها، ومن ثمَّ الاستفادة منها. ومن أمثلة ذلك الدعوة إلى «الإنجيل الاجتماعي»؛ إذ رأى لاهوتيو الإنجيل الاجتماعي أن ملكوت الله قائمٌ هنا على الأرض، وليس أُخرويًّا، مما أدَّى إلى رفض الفكرة بأكملها من قِبل التيار المحافظ.

هـ- تشغيل الطاقات الموجودة داخل الكنيسة من المتخصصين في المجالات المرتبطة بالتنمية، مثل: الأخصائيين الاجتماعيين، وأساتذة التنمية ومدربيها، والكتَّاب والمنظِّرين. ومن المفارقات أنهم يمارسون هذه التخصصات خارج الكنيسة بوصفها مهامَّهم الوظيفية، بينما لا تلتفت الكنيسة إلى أهمية دورهم داخلها.

و- الاستفادة من زيارات قادة الكنيسة وأفرادها إلى كنائس الغرب، والتعرُّف إلى مفهومها للتنمية، والاستفادة من نظرتها إلى العمل التطوعي والالتزام المطلوب من المتطوعين، إذ لا ينصب اهتمام تلك الكنائس على فخامة المباني أو اتساعها، إلا بالقدر اللازم لتوفير خدماتٍ تنمويةٍ مدروسةٍ ومنظمةٍ تشمل الكنيسة، وتمتد إلى المجتمع المحيط بها خارج أسوارها.

ثانيًا: الجانب العملي

أ- من هم الفقراء في العصر الحالي في ظلِّ المتغيرات التي يمكن وصفها بأنها غير محسوبة، ولا سيما في الجانب الاقتصادي؟ وماذا عن الفئات التي تغيَّرت ظروفها نتيجة الحراك الاجتماعي الصاعد والهابط غير المحسوب، تحت ضغط العوامل الاقتصادية؟ وما مدى احتياج هذه الفئات إلى ضمِّها إلى البرامج التنموية بمختلف أنواعها؟ وكيفية التعامل معها؟

ب-كما أن تنوُّع الجماعة وتباينها لا بد من أخذهما في الاعتبار عند التفكير في البرامج التنموية وأسلوب تنفيذها (الريف – الحضر – الأحياء الشعبية – الأحياء العشوائية).

ج- تتجه الكنائس إلى إعداد برامج ومناهج للاجتماعات الفرعية بالكنيسة (مثل: مجلس التربية المسيحية بالسنودس: الابتدائي – الإعدادي – الثانوي – الشباب)، ومن المفيد أن تتضمن هذه المناهج ما يغرس القيم الأخلاقية والاجتماعية والتنموية.

د- تضمين الوعظ في الاجتماعات الفرعية القيمَ الأخلاقية والتنموية.

هـ-وإن كان لا بد من وجود اجتماعات «إخوة الرب»، فليُضَف إلى أنشطتها غرسُ قيم العدالة، ورفض الظلم، وترشيد الاستهلاك، واحترام الآخرين، ونبذ التفرقة العنصرية، واحترام العمل، وتعزيز مكانة المرأة، وصيانة البيئة، والتفاؤل، والعقلانية، وتعليم المرأة، وتقدير الذات، وتقدير العلم، ونبذ العنف، وإدارة الوقت، وتحقيق الذات، والاهتمام بالصالح العام، والإبداع، والانفتاح على الثقافات، والنظام والترتيب، والتخطيط، والحرية، والاعتراف بالخطأ.